مجلة آفاق علمية ISSN: 1112-9336
المجلد: 13 العدد: 02 السنة 2021 ص 258 - 277

تاريخ الإرسال: 2020/01/17 تاريخ القبول: 2020/10/11
تاريخ النشر: 2021/04/30

البنيوية التكوينية في النقد المغاربي
قراءة في تجربتي محمد بنيس ونور الدين صدار
Formative structuralism in Maghreb critics
Reading in the experience of Noureddine Saddar and Mohamed Bennis

[1] عادل سعيدي
مخبر الموروث العلمي والثقافي لمنطقة تامنغست . المركز الجامعي تامنغست (الجزائر)
الإيميل المهني: a.SAIDI@cu-tamanrasset.dz
الإيميل الشخصي: saidi05tam@yahoo.com
[2] أ. د رضوان جنيدي المركز الجامعي تامنغست ؛ salimdjenidi@yahoo.fr

الملخص:

تلقى مجموعة من النقاد المنهج البنيوي التكويني فنال حظا من الدراسة والتحليل في مقارباتهم، وقد يعود سبب اهتمام النقاد المغاربة به لمرونة مفاهيمه وقدرته على إشباع الحس الجمالي لدى الناقد، حيث تراوح الإعلان عن تبني هذا المنهج في عناوين الدراسات أو في مقدماتها فجاء بعضها تعريفيا، والآخر تطبيقيا، واكتفت بعض الأعمال بترجمة كتبه فحسب، وزاوجت بعضها بين التعريف والتطبيق.

ستحاول الدراسة معتمدة على الوصف والتحليل الإجابة عن السؤالين: كيف تلقى النقاد المغاربة البنيوية التكوينية؟ وما الخصوصية المميزة لدراستي نور الدين صدار ومحمد بنيس؟

الكلمات المفتاحية: البنيوية التكوينية، النقد المغاربي، نور الدين صدار، محمد بنيس.

Abstract:

Agroup of critics had recieved the formative structural approach , and they studied it in thei rapproaches, so a lot of maghrib critics were interested to study this aproach because it is flexible and able to satisfy the critic's aesthetic sense, and they dealed with it in their studies by introduce itsometimes and practice itother times .

In this study, by using the analys and description, we try to answer the following questions : how did the maghrib critics recieve the formative structural approach ? and what is the featured privacy of nouredin saddar and mohammed bennis studies ?

Keywords: formative structuralism, maghri critics, Noureddine Saddar, Mohamed Bennis

المؤلف المرسل: **عادل سعيدي** ، الإيميل: SAIDI05TAM@YAHOO.COM

1.مقدمة:

البنيوية التكوينية منهج يحاول الإحاطة بالنص من جميع اتجاهاته، وقد يتأكد مدى صلاحيتها في مقاربة الأعمال الأدبية، بِعدّها واحدة من المناهج التي استقطبت الكثير من النقاد المغاربة، فقد مهدت الطريق أمامهم، وسمحت لهم بعرض توجهاتهم الإيديولوجية والأدبية، فتسارعوا لقراءة النصوص الأدبية قراءة ترتكز على نوع من التوازن بين متطلبات العمل الإبداعي وبين سياقه الاجتماعي الذي سبق تكوينه، ولذا فقد اتجه العديد منهم إلى تبني المنهج البنيوي التكويني، فصدرت لهم أعمال تراوحت بين التنظير والتطبيق أو المزاوجة بينهما.

وتجدر الإشارة إلى أن هؤلاء النقاد قد اختلفوا في تلقيهم لهذا المنهج خصوصا في بدايات ظهوره على الساحة النقدية المغاربية، فمنهم من هلل واستبشر

بقدومه، وراح يطبقه كما جاء من أصوله الغربية، ومنهم من راع خصوصية النص العربي وحاول تطويعه، ولعل من النقاد الذين أسهموا في إثراء الخزانة النقدية العربية المعاصرة بصفة عامة والمغاربية بصفة خاصة نجد الناقدين: محمد بنيس ونور الدين صدار اللذَيْنِ سنسلط الأضواء عل تجربتيهما في تلقي البنيوية التكوينية.

2. مبادئ المنهج البنيوي التكويني:

يعرف بعض الدارسين البنيوية التكوينية بأنها" منهجية تحاول البحث عن العلاقات الرابطة بين الأثر الأدبي وسياقه الاجتماعي والاقتصادي الذي سبق تكوينه"[1] لذا فهي تدرس البنية وسط حدودها الزمانية والمكانية وداخل وضعها التاريخي والاجتماعي، ويورد (معجم المصطلحات الأدبية) أن البنيوية التوليدية هي: " منهج يستهدف تفسير لكل إنتاج إنساني في اعتماده على تحليل البنيات، وهي منهج ماركسي ساهم في إرساء دعائمه لوكاتش وغولدمان، كما تتوخى بلوغ الجماعات لفاعليتها الحقيقية في الإبداع والنقد الأدبيين"[2].

ويعتقد لوسيان غولدمان أن البنيوية التكوينية "ككل منهج علمي ليست مفتاحا لكل شيء، بل منهاجا للعمل، منهجا يتطلب أبحاثا تجريبية طويلة مجراة بصبر، فهي ذاتها يتعين أن تتكامل وتراجع طيلة هذه البحوث"[3]، ويرتبط العمل الأدبي عنده ارتباطا وثيقا بالتصرفات الإنسانية التي تتغير وتتحرك؛ فالبنية عنده تعني الأفعال الجماعية المعبر عنها بفردية الفاعل حين يعطي لعمله صبغة تصور الرؤية الذهنية لجماعته، وهي رؤية ذات بعد اجتماعي شمولي وأن صفة التكوين على هذا الأساس تعني الصفة الاستدلالية للفعل وتتبع مسار تكوينية داخل العمل الفني، وتعيد تركيب بناه ارتكازا على الدلالة الاجتماعية التي يتجه إليها دون مراعاة نشأة الكاتب وعمله، لأن بداية تحليل أي عمل يجب أن تنطلق منه لا غير مع مراعاة السياقات التي أنتجت النص وأخرجته للوجود، لأنها تتصل مباشرة بتكوينه

وإيديولوجيته وبنيته العميقة"[4]؛ وبهذا فإن غولدمان يعتمد في تأسيس بنيان منهجه النقدي على ركيزتين أساسيتين: أولهما البنية الداخلية التي يجسدها المبدع الممثل لإرادة طبقته الاجتماعية، والأخرى العالم الخارجي للمبدع الذي يمثل مصدر مواقفه وآرائه.

ونلاحظ مما سبق أن تعدد التعاريف لمصطلح واحد وهو مصطلح البنيوية قد يرجع إلى اختلاف التوجهات الفكرية والعلمية والفلسفية والمعرفية، لذلك كان من البديهي أن يختلف مفهوم البنية من دارس لآخر، كما نلحظ أن البنيوية التكوينية هي مقاربة منهجية علمية تهدف إلى دراسة الظواهر الأدبية والفنية والثقافية فهما وتفسيرا، فهي تقوم على معرفة الكل من خلال الجزء للوصول إلى جوهر المضمون الذي يقدمه المبدع ضمن سياقه الاجتماعي والتاريخي؛ وعليه فإن المنهج البنيوي التكويني هو المنهج الذي يهتم بدراسة الأدب بِعدّه ظاهرة اجتماعية تاريخية، دون إهماله لبنياته الخاصة التي يتم تفسيرها بواسطة العلاقات الموجودة بين العناصر الداخلية المكونة لها وبين العناصر الخارجية المؤثرة فيها والمتفاعلة معها.

ربط المنهج البنيوي التكويني الدراسة النصية للأدب بدراسة الوسط الاجتماعي الذي أسهم في إخراجه وإبداعه، إلا أن هذه الدراسة يشترط أن تمر بمرحلتين أساسيتين: تتمثل المرحلة الأولى في "البدء بقراءة ألسنية للنص، وذلك عن طريق تفكيك بنياته إلى وحداتها الصغرى الدالة قصد اكتشاف (البنية السطحية) للنص وبيان بنيات الزمان والمكان فيه وتركيب هذه الأجزاء للخرج منها بتصور عن البيئة العميقة للنص أو رؤية العالم، كما تجسدت في الممارسة الألسنية للنص"[5].

وتتمثل المرحلة الثانية في إدماج هذه البنيات الجزئية للوحدات الدالة في بنية أكثر اتساعا على أن يتم كذلك تفكيك هذه البنية قصد العثور على دلالتها الكلية الشاملة، "وبهذا تنتقل من(النص الماثل) إلى النص الغائب، وذلك أن

النص الماثل ليس ذرة مغلقة على نفسها، بل هو نتاج اجتماعي تاريخي يعبر عن طموحات فئة اجتماعية، وبذلك تصبح قراءة النص الأدبي كشفا لبنياته المتعددة، ثم إدماجها في البنية الاجتماعية لبيئة المبدع وعصره"[6]، وهكذا فإن المنهج البنيوي التكويني مهمته البحث على أربع بنيات للنص هي: البنية الداخلية للنص أو مضمونه، ثم البنية الثقافية أو الإيديولوجية، وبعدها البنية الاجتماعية، وأخرها البنية التاريخية، ويشترط في هذه البنيات الارتباط والتفاعل.

ارتكز المنهج البنيوي التكويني على مجموعة من المبادئ والمفاهيم الأساسية أهمها ما يلي:

2-1- البنية الدلالية: وقد استقاها لوسيان غولدمان من أستاذه جورج لوكاتش، وتعد المرحلة الأولى لتحليل نص أدبي، ويحدد غولدمان مفهوم البنية الدلالية في كتابه (أبحاث جدلية) بقوله: "إن مقولة البنى الدلالية تدل معا مع الواقع والقاعدة، لأنها تتحدد في أن المحرك الحقيقي (الواقع) والهدف الذي تصبو إليه هذه الشمولية التي هي المجتمع الإنساني، هذه الشمولية التي يشترك فيها مع العمل الذي يجب دراسته، والباحث الذي يقوم بهذه الدراسة"[7]، إن البنية الدالة تتواجد في تمفصلات النص الأدبي تخترق كيانه وتمكن متلقي العمل من فهم خلفية الفئة الاجتماعية المعبر عنها فهما عميقا، فهي تصور يتحكم في مجموع العمل الأدبي، وقد عدّها غولدمان مفهوما إجرائيا تتمثل وظيفته في تمكيننا من فهم طبيعة النصوص الإبداعية ودلالاتها والحكم على قيمتها وإدراك رؤية المبدع للعالم في إطار تصور اجتماعي.

2-2- الفهم والتفسير:

الفهم والتفسير عمليتان إجرائيتان متلازمتان ليستا متعارضتين، فهما وجهان لعملة واحدة لا يمكن الفصل بينهما، فقد يصل الحد أن نعدّها مقولة واحدة في

المنهج البنيوي التكويني، يرتكز الفهم على البنى الداخلية للنص، ويختص التفسير في البحث عن الجوانب الخارجية ودراستها، وهذا الذي يؤكده الناقد محمد عزام من خلال أن " الفهم يكمن في الوصف الدقيق لبنية ذات دلالة، أو هو الكشف عن بنية دالة محايثة للموضوع المدروس، أما التفسير فهو إدراج هذه البنية من حيث هي عنصر مكون ووظيفي في بنية شاملة مباشرة لا يسبرها الباحث بطريقة مفصلة، إنما بالقدر الضروري لجعل تكوين العمل الذي يدرسها مفهوما"[8]؛ ومن هذا المنطلق فإن التفسير يدعم الفهم في الممارسة البنيوية التكوينية، وهذا الشيء الذي يدفع المحلل البنيوي إلى ضرورة الانتقال بنيهما باستمرار، فلا يمكن الاستعانة بآلية الفهم دون التطرق إلى إجراء التفسير.

2-3 مستويات الوعي: تتمايز هذه المستويات بالنسبة لمنهج البنيوية التكوينية في الأصناف التالية:

أ-الوعي القائم: وله مسميات عديدة كالوعي الفعلي أو الوعي الواقع، إلا أنه يحمل مفهوما واحدا بالرغم من تعدد مصطلحاته، ويعني "ذلك الوعي الناتج بطبيعته عن الماضي كموروث بكل زخمه الحضاري والثقافي والتاريخي الذي جاء إلى الحاضر الذي يعيد فهمه وصياغته انطلاقا من تلك المؤثرات والمعتقدات الراسخة في ذهن الجماعة الاجتماعية التي تحكم مصيرها تسير شؤون حياتها، فالوعي القائم موجود على مستوى سكوني سالب في انحصاره في إطار الجماعة وحاضرها وواقعها"[9].

ب-الوعي الممكن: وهو الذي انبثق عن الوعي الفعلي، ولكنه يتجاوزه ليشكل وعيا مستقبليا، ويحمل على عاتقه مسؤولية تقديم حلول ناجعة للمشكلات التي تطرحها المجموعة الاجتماعية التي تتعارض مع طبقات أخرى قصد الوصول إلى نوع من التوازن المنشود لهذه العلاقات، فإذا ارتبط الوعي الفعلي "بالمشكلات التي تعانيها الطبقة أو المجموعة الاجتماعية من حيث علاقاتها المتعارضة ببقية الطبقات أو

المجموعات، فإن الوعي الممكن يرتبط بالتصورات التي تطرحها الطبقة لتحل مشكلاتها وتصل إلى درجة من التوازن في العلاقات مع غيرها من الطبقات أو المجموعات"[10].

ج-الوعي المتوافق: وهو المرحلة الثالثة للوعي بعد الوعيين القائم والممكن، وقد تحدث (لوسيان غولدمان) في كتابه (الماركسية والعلوم الإنسانية)عن هذه المرحلة، حيث عدّها حالة توازن مؤقتة ناتجة عن اختلالات التوازن، التي يحدثها الوعي الواقع واجتهادات تعديله من طرف الوعي الممكن، ليتحقق الوعي المتوافق نسبيا مع الواقع، الذي سرعان ما يقلب الطاولة من جديد، ويعيد الأمور إلى حالة عدم التوازن، مما يعني أن الوعي بعد أن قام بتغيير الواقع تغير هذا الأخير كمحيط للوعي البشري، الذي تأثر بدوره بتداعيات هذا التفسير، ولم تدم بالتالي حالة التوازن التي سرعان ما تتلاشى"[11].

د-الوعي الخاطئ: وقد يرد بمصطلحات عديدة "كالوعي الواهم أو المستحيل أو الزائف، وهو نمط من الوعي يمثل المرحلة الاحتمالية الثالثة، حيث رتب غولدمان هذا النوع من الوعي في المرتبة الأخيرة، والوعي الخاطئ "هو مساحة ذهنية يبرز وجوده كاصطلاح مواكب للبطل المأزوم والخائب في سعيه عندما يخطئ فهم العالم، فيتبع أوهامه التي تطوح به بعيدا عن الواقع [...] ولذا فإن مرحلة الوعي الخاطئ تأتي كاحتمال سالب يبرز على السطح كلما آل هذا التصور إلى الوهمية والإدراك الزائف"[12].

2-4 رؤية العالم: يعد مصطلح رؤية العالم من أهم المفاهيم الإجرائية في المنظومة الاصطلاحية للبنيوية التكوينية، وتمثل الهدف المنشود والغاية المرجوة من وراء المنطلقات والمبادئ السابقة، فهذا المنهج النقدي لا ينظر إلى الأعمال الإبداعية إلا بعدّها تعبيرا عن رؤية العالم التي تتبلور داخل زمرة أو جماعة اجتماعية في

احتكاكها بالواقع، ويعرف لوسيان غولدمان رؤية العالم بأنها " الكيفية التي يحس وينظر فيها إلى واقع معين، أوهي النسق الفكري الذي يسبق عملية النتاج، إن ما هو حاسم (ليس المقصود) هو نوايا المؤلف، بل الدلالة الموضوعية التي يكتسبها النتاج بمعزل عن رغبة مبدعه وأحيانا ضدها، وهذه الرؤية ليست واقعة فردية، بل واقعة اجتماعية تنتمي إلى مجموعة أو إلى طبقة"[13]؛ فالأديب وإن تفرد بالصياغة الجمالية للعمل الإبداعي، فهو لا يمتلك رؤية العالم الفكرية في عمله الإبداعي، لأنها ملك لطبقته، ويقتصر دوره على توضيحها وإبرازها، لأنها رؤية جماعية لا فردية.

تلك هي أهم المفاهيم الأساسية والمنطلقات الإجرائية التي أرسى دعائمها لوسيان غولدمان حتى أخرجها في صورتها النظرية النهائية، لتشكل خليطا متجانسا متكاملا متسقا ومنسجما من الرؤى والقناعات، فأمست منهجا نقديا لمقاربة الأجناس الأدبية على تعددها.

3. تلقي النقاد المغاربة للبنيوية التكوينية:

في بيئة مليئة بالنظريات والمدارس النقدية ظهرت البنيوية التكوينية، التي استطاعت أن تفتح آفاقا جديدة وطرقا مغايرة لمقاربة الأعمال الأدبية، عكس ما كان سائدا في المناهج التي سبقتها، ولعدة أسباب أعجب النقاد المغاربة بهذا المنهج لمرونة مفاهيمه، فشغل فكرهم ووجدوا ضالتهم في تبنيه، إما عن طريق إعلانهم عن انتمائهم إليه مباشرة أو عن طريق القيام بدراسة أو ترجمة لكتب أعلامه الغربيين.

ومن بين الدراسات المغاربية التي اتخذت منهج البنيوية التكوينية في مقاربتها نجد في مجال الرواية مثلا دراسة الناقد عبد الكبير الخطيبي في كتابه (الرواية المغربية) فقد تكلف عناء ترجمته الناقد محمد برادة، والى جانبها نجد الدراسة التي تقدم بها حميد لحميداني بعنوان (الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي دراسة بنيوية تكوينية) ، ومن بين الدراسات الأكاديمية الجامعية نجد مقاربة الباحث

الجزائري: شوشان بوبكر والموسومة بـ (رؤية العالم في روايات حفناوي زاغز – دراسة سردية في ضوء البنيوية التكوينية للوسيان غولدمان)، ودراسة محمد الأمين بحري (رؤية العالم في ثلاثية أحلام مستغانمي الروائية – دراسة بنيوية تكوينية–).

ونجد في جنس الشعر أن النقاد المغاربة كان لهم حظ في مقاربته فظهر كتاب (سوسيولوجيا الغزل العربي – الشعر العذري نموذجا) لطاهر لبيب، وكتاب (القصيدة المغربية المعاصرة، بنية الشهادة والاستشهاد) لعبد الله راجع، وكتاب (ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب – مقاربة بنيوية تكوينية) للناقد محمد بنيس، وكتاب (شعر أبي مدين التلمساني: الرؤيا والتشكيل) لمختار حبار.

وأما القصة القصيرة، فقد تعرض لها مجموعة من النقاد بالدراسة والتحليل، ومن بين هؤلاء النقاد نجيب العوفي في كتابه (مقاربة الواقع في القصة القصيرة المغربية من التأسيس إلى التجنيس)، ومن الدراسات النقدية التي تبنت المنهج البنيوي التكويني نجد دراسة محمد برادة (محمد مندور وتنظير النقد العربي)، وإلى جانبها جاءت دراسة إدريس بلمليح (الرؤية البيانية عند الجاحظ)، ودراسة أحمد سالم ولد أباه في كتابه (البنيوية التكوينية والنقد العربي الحديث دراسة لفاعلية التهجين).

وأما الدراسات التي عرفت بالجهود التنظيرية للبنيوية الغربية، فهي كثيرة منها كتاب (البنيوية التكوينية من الأصول الفلسفية إلى الفصول المنهجية) لمحمد الأمين بحري، إضافة إلى مجموعة من الدراسات المغاربية التي حملت على عاتقها التعريف بمنهج البنيوية التكوينية، ومنها دراسة نور الدين صدار (البنيوية التكوينية في المقاربات النقدية العربية المعاصرة).

هذه هي أهم الجهود النقدية المغاربية التي اختارت البنيوية التكوينية منهجا لمقارباتها الإبداعية فاتسع صدر النقاد لاستقبال هذا المنهج، وقد تراوح هذا التلقي بين التنظير والممارسة والترجمة، وأحيانا المزاوجة بين التنظير والتطبيق، وقد فتحت

هذه المقاربات المغاربية أبوابا كانت موصدة قصد سبر أغوار النص الأدبي وفهمه وتفسيره.

3-1. نور الدين صدار والتعريف بالبنيوية التكوينية:

من الدراسات التي عرفت بالبنيوية التكوينية نجد كتاب الناقد الجزائري نور الدين صدار (البنيوية التكوينية في المقاربات النقدية العربية المعاصرة)، والذي حاول تتبع القراءات والمقاربات العربية التي تبنت المنهج النبوي التكويني متسائلا عن أسباب اختلاف القراءات النقدية على تعددها، وهي تستقي من معين واحد.

احتوت فصول الكتاب على مقدمة ومدخل وبابان وخاتمة، ففي المقدمة أظهر المؤلف المنهج الذي ارتكزت عليه هذه الدراسة، وهو نقد النقد أو ما يسمى بقراء القراءة، كما وضح سبب اختياره لمنهج البنيوية التكوينية الذي يعود إلى اهتمامه الخاص بهذا المنهج، مصرحا أن "البنيوية التكوينية جاءت لتكشف على قدرتها على احتواء جوانب متعددة من الواقع الثقافي والاجتماعي والسياسي دون أن تفرط في العملية الإبداعية"[14].

عنون المؤلف مدخله (بالبنيوية التكوينية في الخطاب النقدي) الذي تحدث فيه عن الأصول الفلسفية والمرجعيات الفكرية للبنيوية التكوينية، وحسب رأي الناقد صدار فإن هذا المنهج يتصل بفسلفيتين عريقتين هما الفلسفة المثالية والفلسفة الوضعية، ويؤكد "أن البنيوية التكوينية تمتد بأصولها إلى فلسفتين هما الفلسفة المثالية والفلسفة الوضعية، باعتبار أن البنيوية التكوينية انطلقت في قراءتها عن اللوغوس أو المكون الباني، لتنتهي إلى تفسير البنية السطحية أو الشكل التعبيري القابع خلف هذا المكون أو هذه الرؤية، من أجل ذلك ركزنا قراءتنا على هاتين الفلسفتين"[15]، ليختتم مدخله بالحديث عن المقاربات النقدية العربية التي اتخذت منهج البنيوية التكوينية في دراستها، مراعيا تسلسلها التاريخي، وقد قسمها إلى

أصناف ثلاثة: صنف يهتم بالنصوص التي قاربت نصوصا شعرية، وصنف بالقراءات التي قاربت الأعمال السردية، واهتم الصنف الأخير بالقراءات التي قاربت الدراسات النقدية.

وعنون الباب الأول بـ (النظرية البنيوية التكوينية) وقسمه إلى فصلين: تحدث في الأول منهما على إشكالية مقاربة المنهج والمصطلح، وتوصل إلى أن الباحثين والنقاد العرب لم يتفقوا على ضبط مصطلح واحد، حيث وظف الناقد العربي مصطلحات عديدة في مقارباته أهمها البنيوية التوليدية، البنيوية التركيبية، والبنيوية الدينامية، البنيوية التكوينية، غير أن هذا التكوينية هو المصطلح الأكثر استعمالا وانتشارا في المقاربات العربية، ويرجع الناقد سبب عدم توحيد المصطلح إلى ضعف الترجمة التي اهتمت بترجمة المصطلح لا المفهوم[16].

توصل نور الدين صدار إلى أن المجال السردي –متمثلا في القصة والرواية– كان على رأس الممارسات النقدية العربية لسهولة مقاربته وتطبيق هذا الجنس الأدبي على المنهج البنيوي التكويني، وقد مثل هذا الجنس الأدبي كل من (محمد برادة ويمنى العيد، محمد عزام، مدحت الجيار، رفيق رضا صيداوي)، ثم يأتي جنس الشعر في المرتبة الثانية، هذا الجنس الذي لم يلق إقبالا كبيرا ولم يحظ بالمقاربة البنيوية التكوينية عند الدارسين الغربيين خصوصا نظرا لصعوبة قراءته وتحليله، وبالمقابل فإن النقاد العرب استطاعوا تطويع منهج البنيوية التكوينية وتطبيق جنس الشعر عليه، فاهتموا بدراسته بالشرح والتحليل، ومن النقاد الذين استطاعوا تطبيق هذا المنهج على النصوص الشعرية نجد (الطاهر لبيب، ومحمد بنيس، ومختار حبار ومدحت الجيار)، ثم يأتي في المرتبة الثالثة المسرح الذي لم يحظ بالقراءة الواسعة إلا من قبل باحث واحد – حسب الناقد صدار– وهي قراءة مدحت الجيار في القسم الثاني من دراسته (النص الأدبي من منظور اجتماعي)، وتجدر

الإشارة أن الناقد صدار لم يخصص مجالا للحديث عن هذا الجنس، ولم يتعرض له في دراسته السالفة الذكر[17].

أما الباب الثاني من دراسة الناقد فقد خصصه إلى تمظهرات البنيوية التكوينية في المدونة العربية المعاصرة، وقد قسمه إلى أربعة فصول: ففي الفصل الأول تحدث عن الرؤية المأساوية التي اختلفت مسمياتها من باحث إلى آخر، فهي عند الطاهر لبيب مبينة على قيمة الحرمان والتهميش، وعند مدحت الجيار يصطلح عليها بانهزام الإنسان أمام القهر السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وأما سلمان كاصد، فقد سماها بنية التدهور، وبنت الباحثة رفيق رضا صيداوي رؤيتها على الانقسام الطائفي والإيديولوجي والاجتماعي في الحرب اللبنانية؛ وقد يرجع اختلاف المسميات عند هؤلاء الباحثين في مقارباتهم إلى ما يمكن أن "نصطلح عليه بالحس المأساوي الذي جاء نتيجة تعارض بين الرغبة الإنسانية وطموحاتها، وبين الواقع الذي لم يسعف الإنسان على تحقيق طموحاته" [18] .

وبعد حديثه عن الرؤية المأساوية في المقاربات العربية التي لم تكن موحدة بسبب تعدد مظاهرها يواصل الناقد حديثه عن مقاربة الرؤية الاجتماعية التي تتبعها ورصدها في مقاربات الباحثين والنقاد، وكان الغرض من ذلك هو "التأكد أن فرضية تقاطع رؤى المبدعين مع الواقع الاجتماعي الذي يعبرون عنه ويجسدونه في أعمالهم الإبداعية ليست فرضية قطعية، إذ يحدث أن لا تتقاطع الرؤية مع هذا الواقع أو ذاك"[19].

يتوصل الناقد بعد دراسة عميقة لهذه الروئ الاجتماعية إلى نتيجة مفادها أن الرؤية السوسيولوجية في المقاربات النقدية العربية لم تكن موحدة، فقد اختلفت أشكالها وتنوعت أنماط رؤاها، مما أدى إلى تعدد رؤى المبدعين ونظرتهم إلى الواقع الاجتماعي، فمثلا نجد أن الناقد محمد بنيس يستخلص وهو يحلل المتن الشعري

العربي المعاصر أن بنيته العميقة التي أسهمت في تحديد رؤية شعراء المغرب لا تتطابق مع الواقع، فهي بنية تصورها المبدعون في الأذهان لكن الواقع غير ذلك فهو متفجر ومتغير ومتصارع[20].

اقترح الدارس صدار في حديثه عن المقاربة المرجعية النقدية قراءتين حاولتا أن تحددا المرجعية النقدية عند محمد مندور من خلال القراءة التي أعدها الناقد محمد برادة (محمد مندور وتنظير النقد العربي)، والمرجعية الكلامية لنظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني من خلال دراسة الباحث مختار حبار (المرجعية النقدية لنظرية النظم عند الجرجاني)، وكان الهدف من الدراسة الأولى هو "البحث عن مكونات المرجعية النقدية التي حاول محمد برادة كشف جذورها ومكوناتها البانية، فهذا المنهج مكن محمد برادة من الوقوف عند المرجعية النقدية عند محمد مندور؛ وأما الدراسة الثانية، فهي تهدف إلى البحث عن المرجعية الكلامية لنظرية النظم، بوصفها المكون الباني والبنية العميقة الدالة لهذه النظرية، وهي دراسة التي اعتمد فيها صاحبها على المنهج الذي يربط الظاهرة الإبداعية النقدية بمنابعها وأصولها التي كانت وراء تشكيل بنيتها السطحية"[21].

وبعد عرض الناقد لهاتين المقاربتين يستنتج أن قراءة مختار حبار لنظرية النظم عند الجرجاني قد وافقت في طرحها وتصورها ومبادئها العامة قراءة محمد برادة، حينما استبعد مختار حبار التوصيف والتاريخ بمنهج تفسيري غايته البحث عن المرجعيات والعلل والمكونات، ليتم بعدها الكشف عن التفاعل القائم بين هذه المرجعيات بوصفها بنى عميقة وبين تمظهراتها المتمثلة في البنى السطحية[22]، وختم دراسته المستفيضة بجملة من النتائج المتوصل إليها.

ومما تقدم يمكن القول أن كتاب (البنيوية التكوينية في المقاربات النقدية العربية المعاصرة) لنور الدين صدار يعد مجهودا علميا حقيقيا، استطاع أن يعرف

فيه القارئ على مختلف المقاربات العربية التي تبنت منهج البنيوية التكوينية الذي طبق على مختلف الأجناس الأدبية، فقد وفر على القارئ العربي عناء البحث الشاق والطويل على هذه المقاربات، فهي أصبحت جاهزة أمامه استطاعت توضيح عدة إشكالات استعصت على المتلقي العربي.

3-2. محمد بنيس وممارسة البنيوية التكوينية:

طبق النقاد المغاربة المنهج البنيوي التكويني منذ سنوات الستينات على مختلف الأجناس الأدبية، ويظهر ذلك جليا من خلال العديد من مؤلفات النقاد، حيث جعلوه مدارا للتحليل والنقد انطلاقا من زوايا متعددة، ولذا فإننا سنسلط الضوء على إحدى هذه المقاربات النقدية التي كان لها فضل السبق -فيما نحسب- لوضع اللبنات الأولى لصرح التجربة الشعرية المعاصرة في المغرب، ونعني بذلك مقاربة محمد بنيس والموسومة بـ (ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب-مقاربة بنيوية تكوينية-).

يفصح الناقد محمد بنيس منذ الوهلة الأولى عن المنهج الذي اعتمده في هذه المقاربة، ويظهر ذلك من خلال العنوان الفرعي لدراسته، إذ يقول: "أطمئن لمنهج يقوم على إعطاء الاعتبار لظاهرتين أساسيتين متكاملتين لا أشك في صدقهما، تنحصر الأولى في الطبيعة اللغوية للنص الأدبي، والثانية في الطبيعة الاجتماعية الجدلية بحيث أيا منهما لا تنفي الأخرى"[23]، ليتضح من خلال المقدمة الأهداف والغايات من الدراسة التي دفعته لاختيار منهج البنيوية التكوينية لدراسته، ويصرح بذلك: "حاولت أن ارتبط بالقراءة التي تؤلف بين داخل المتن وخارجه، مستفيدا من البنيوية في الكشف عن قوانين البنية الدالة ومن المادية التاريخية الجدلية في تفسيرها لطبيعة هذه البنيات [...] ومعتمدا على البنيوية التكوينية"[24].

جاءت دراسة محمد بنيس مقسمة على ثلاثة أبواب نختصرها في مرحلتين أساسيتين: مرحلة أولى هي الدراسة الداخلية للمتن الشعري، ويتم فيها قراءة المتن الشعري المغربي المعاصر قراءة داخلية ليكون النص الإبداعي منفصلا عما هو خارجه مؤقتا، وتهتم هذه القراءة بالبحث عن تجليات البنية السطحية للمتن المدروس وتبحث عن قوانين (الزمان والمكان، ومتتاليات النص، وبلاغة الغموض)، ولكي يصل الناقد إلى استخلاص محاور البنية العميقة قام بتفكيك بنية المتن الشعري المغربي إلى مجموعة قوانين استنتجها من البنية السطحية وهي (قانون التجريب، وقانون السقوط والانتظار، وقانون بنية الغرابة)؛ فقانون التجريب مستمد من بنية الزمان والمكان، وقانون السقوط والانتظار من بنية المتتاليات، وقانون الغرابة مستنتج من بنية بلاغة الغموض[25]، وقد قدم الناقد بنيس تعريفات لهذه القوانين وحاول تبسيطها للمتلقي.

تليها مرحلة الدراسة الخارجية للمتن الشعري، ويؤكد الناقد محمد بنيس وهو يحلل المتن الشعري أن الدراسة الداخلية ليست نهائية، بل هي مجرد كشف أولي عن القوانين الملازمة للبنية اللغوية التي تعطي اللغة بعدها الإبداعي، لذا قام بقراءة ثانية مؤقتة خارجية، وهذا بعدما حدد قوانينها الداخلية، لأن " البنية الداخلية ليست إلا فهما في حاجة إلى تفسير، وهذا ما دعاني لمباشرة المرحلة الأولى من القراءة الخارجية الخامة بالمجال الثقافي الذي ساعدنا تحديده على تفسير نسبي للبنية الداخلية للمتن"[26]؛ وقد ركز الناقد في دراسته للبنية الثقافية على ثلاثة مجالات وهي: (النص الغائب، مراحل تكوين المتن الشعري المعاصر، والحدود الخمسة للمجال الشعري)، ليخلص إلى أن بنية السقوط والانتظار هي بنية سائدة تشمل البنيات الثلاث، وبالتالي هي المهيمنة في المجال الثقافي أيضا الذي رافق بدايات وامتداد الظاهرة الشعرية بالمغرب.

وقد ذكرنا في موضع سابق أن البنية الداخلية للمتن عاجزة أو غير كافية لتفسير المتن الشعري، لأنها مجرد فهم يحتاج إلى تفسير، لذلك استعان الناقد بالمجال الثقافي ليعزز تفسير البنية ولكن هذا التفسير –حسب الناقد– سيظل نسبيا وقاصراً "لا قدرة له على الإحاطة بكافة أسباب هذه الظاهرة والوصول إلى جوهرها، إن هذا التفسير المنبثق عن قراءتنا للمجال الثقافي ليس إلا مرحلة، ومن ثم فهو لا يتجاوز الفهم الذي يتطلب تفسيرا فهو يوجد ضمن المجالين الاجتماعي والتاريخي"[27]؛ إن الملاحظة التي سجلها الناقد على البنية الداخلية للمتن الشعري وعلى المجال الثقافي في قصورهما على إعطاء تفسير شامل لبنية المتن الشعري المغرب، جعلته يلجأ إلى إدخالهما في بنية أكثر اتساعا تتميز بالشمولية قصد الوصول إلى تفسير نهائي لهذه الظاهرة الشعرية وهي البنية الاجتماعية والتاريخية.

أراد الناقد محمد بنيس اعتمادا على تقارير رسمية أن يعطي تقيما للوضع الراهن في المغرب، فالمتن الذي خصصه الناقد لمجال الدراسة فرض عليه أن ينظر إلى الفئة الاجتماعية التي ينتمي إليها هؤلاء الشعراء، فوجد أنهم ينتمون إلى الطبقة الاجتماعية نفسها، ولهذا أطلق عليهم اسم الطبقة البرجوازية الصغيرة، التي كانت لها خصيصة في تجربتها الاجتماعية والتاريخية في المغرب، وقد هيمنت عليها هي الأخرى بنية السقوط والانتظار السائدة في جميع البنيات، وهذه البنية في حقيقة الأمر ما هي إلا انعكاس غير مباشر للوضعية التي يعيشها هؤلاء الشعراء وسط الطبقة البرجوازية الصغيرة.

وفي خاتمة الدراسة توصل الناقد محمد بنيس إلى مجموعة من النتائج أهمها:[46] اكتفاء قراءة ظاهرة الشعر المعاصر بالمغرب بالملاحظة والاستقراء، كما أنها تبتعد عن الأحكام المسبقة أي أنها قراءة وصفية لا معيارية تهدف إلى تحديد البنيات الدالة، وأن الظاهر الشعرية المعاصرة بالمغرب تسلك –من مرحلة البدايات

إلى مرحلة الامتداد في نسجها للنص– قانون السقوط والانتظار، وهو متسرب في أعماق البنية الداخلية العامة للمتن الشعري، وله علاقة وطيدة ببنية المجال الثقافي ثم الاجتماعي والتاريخي؛ كما أن بنية المتن الشعري المعاصر بالمغرب تتميز بقوانين متميزة كتجربة لغوية لها علاقة وفرق مع التيارات الشعرية الأخرى، ولكن هذه البنية ليست إلا إعادة صياغة لمنظومة البرجوازية الصغيرة وخاصة من خلال فئاتها المقروءة وواقعها التاريخي والاجتماعي الذي ليس هو الواقع المغربي ككل، ولم يغفل الباحث بنيس حاجة المتن الشعري المعاصر إلى إعادة تركيب قوانين بنية فضائه متخذا من النقد العلمي سبيلا لقراءة الذات والموروث والمجتمع.

من خلال قراءتنا لتجربة محمد بنيس (ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب) نستطيع القول أن الناقد أخذ خطوة جريئة، حاول فيها تطبيق المنهج البنيوي التكويني على هذه الظاهرة في وقت مبكر كان فيه هذا المنهج الغربي طيعا جديدا على الساحة النقدية المغاربية، ففي الوقت الذي اكتفى فيه بعض الدارسين بالتنظير لهذا المنهج والتعريف به أخذ هو زمام المبادرة وخاض غمار تجربة المقاربة والتحليل على أصعب جنس أدبي، مستخدما بعض آلياته الإجرائية ومفاهيمه الأساسية.

4.خاتمة:

نصل إلى مجموعة من النتائج ترتبط بتلقي النقاد المغاربة للبنيوية التكوينية من خلال تجربتي نور الدين صدار ومحمد بنيس:

*– ترتكز البنيوية التكوينية على مجموعة من المبادئ والمفاهيم أهمها: البنية الدلالية، الفهم والتفسير، الوعي الممكن، والوعي القائم، الوعي المتوافق، الوعي الخاطئ، ورؤية العالم.

*– طبقت المقاربات العربية البنيوية التكوينية على مختلف الأجناس الأدبية، وكان على رأسها الرواية ثم الشعر وبعدهما القصة القصيرة.

*- شاع مصطلح البنيوية التكوينية واستخدامه النقاد المغاربة رغم التعدد والاختلاف في تسميته من ناقد لآخر، ويرجع ذلك -حسب الناقد صدار- إلى ضعف الترجمة التي اهتمت بترجمة المصطلح لا المفهوم.

*- يؤكد الناقد نور الدين صدار أن المجال السردي متمثلا في الرواية والقصة كان على رأس الممارسات النقدية العربية، لسهولة مقارباتها وبساطة تطبيق هذا الجنس الأدبي على منهج البنيوية التكوينية.

*- اختلفت تسمية الرؤية المأساوية والرؤية الاجتماعية من باحث لآخر في المقاربات العربية.

*- يمكن أن تختزل دراسة محمد بنيس في مرحلتين: الدراسة الداخلية للمتن الشعري، والدراسة الخارجية له.

*- اعتمد الناقد محمد بنيس في قراءته لظاهرة الشعر المعاصر بالمغرب على مبدأين أساسين في المنهج البنيوي التكويني هما: الفهم والتفسير، ويتجلى الفهم من خلال الدراسة الداخلية للمتن الشعري عن طريق اكتشافه للبنية السطحية ومحاور البنية العميقة، ويظهر التفسير من خلال الدراسة الخارجية للمتن بربطه البنية الثقافية بالبنية الاجتماعية والتاريخية.

5.المراجع:

[1]- محمد نديم خشفة: تأصيل النص (المنهج البنيوي لدى لوسيان غولدمان)، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط1، 1997 ص9.

[2]- سعيد علوش: معجم المصطلحات الأدبية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1985، ص233-234.

[3]- لوسيان غولودمان وآخرون: البنيوية التكوينية والنقد الأدبي، تر محمد سبيلا، مؤسسة الأبحاث العربية، لبنان، ط2، 1986، ص42.

[4]– محمد الأمين بحري: البنيوية التكوينية من الأصول الفلسفية إلى الفصول المنهجية، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2015، ص142.

[5]– محمد عزام: فضاء النص الروائي (مقاربة بنيوية تكوينية في أدب نبيل سليمان)، دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا، ط1، 1996، ص42.

[6]– نفسه، ص42.

[7]– جمال شحيد: في البنيوية التركيبية (دراسة في منهج غولدمان)، دار ابن رشد، سوريا، ط1، 1982، ص81.

[8]– محمد عزام: تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحديثة (دراسة في نقد النقد)، إتحاد كتاب العرب، دمشق، 2003، ص230.

[9]– محمد الأمين بحري: البنيوية التكوينية من الأصول الفلسفية إلى الفصول المنهجية، ص160.

[10]– جابر عصفور: نظريات معاصرة، دار الهدى للثقافة والنشر، بيروت، 1998، ص110.

[11]– محمد الأمين بحري: البنيوية التكوينية من الأصول الفلسفية إلى الفصول المنهجية، ص164.

[12]– نفسه، ص165–166.

[13]– لوسان غولودمان وآخرون: البنيوية التكوينية والنقد الأدبي، ص48.

[14]– جميل حمداوي: البنيوية التكوينية بين التنظير والتطبيق، ط1، 2016، ص46.

[15]– نور الدين صدار: البنيوية التكوينية في المقاربات النقدية العربية المعاصرة، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، ط1، 2018، ص1.

[16]– نفسه، ص7.

[17]– نفسه، ص62–64.

[18]– نفسه، ص148–149.

[19]– نفسه، ص171.

[20]– نفسه، ص219.

[21]– نفسه، ص277.

[22]– نفسه، ص329.

[23]– نفسه، ص393.

[24]– محمد بنيس: ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب مقاربة بنيوية تكوينية، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط2، 1985، ص24.

[25]– نفسه، ص39. وما بعدها.

[26]– نفسه، ص329.

[27]– نفسه، ص329.